بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة الشيخ صالح اللحيدان.. كما رأيتُه

بقلم:

أ.د. عبدالعزيز بن أحمد بن عبدالله البداح

يوم الثلاثاء الموافق: ٢٠ /٠٦/ ١٤٤٥هـ

ما أكتبه ليس رثاءً جرتْ عادة الأحياء أن يكتبوه عن الأموات، وإنما فيضٌ قهريٌ يتفجّر من القلب ويتسرّب بين الأنامل؛ ليكتب بمدادٍ مختلطٍ بالأسى على الفراق ومرارة الفقد، والشعور بفراغٍ لا يُسدّ.

وهذا الشعور يخاطب قلمي ليقول له:

اكتب أيها القلم عن عالمٍ كبيرٍ، وعابدٍ صادقٍ، وفقيهٍ متضلّعٍ، وأديبٍ بارعٍ، ونحويٍ متمكّن.

اكتب أيها القلم عن شموخٍ في تواضعٍ، ومهابةٍ في تطامنٍ، وقوةٍ في رحمةٍ، ولطفٍ في حزم.

اكتب أيها القلم عن كبيرٍ في زمن الصغار، وصادقٍ في فترة الأدعياء، وعظيمٍ في صولة الأقزام.

لن أكتب بقلم أصم على صفحاتٍ جامدة؛ بل سأكتب بدموع الأسى تسيل على صور الذكريات الحيّة.

لا تعذلِ المشتاقَ في أشواقِهِ ❖❖❖ حتى يكونَ حشاكَ في أحشائهِ

إنّ القتيلَ مضرّجًا بدموعهِ ❖❖❖ مثلُ القتيلِ مضرّجًا بدمائهِ

وتعظم مرارة الفقد لصاحب المعروف، وتتضاعف مأساة الفراق لباذل النّدى:

فراقكَ مثلُ فراقِ الحياة ❖❖❖ وفقْدكَ مثلُ افتقادِ الدِّيَمْ

عليك السلامُ فكمْ من وفاءٍ ❖❖❖ أفارقُ منكَ؟ وكمْ من كَرَمْ

والموت من سَنَنُ الحياة، وطبيعة الدنيا، وسنة الله في الخلق، لا يبقى أحدٌ، ولا يُخلّد مخلوقٌ، ولا يدوم بشر.

لا يدومُ البقاءُ للخلقِ ❖❖❖ لكنَّ دوامَ البقاءِ للخلّاقِ

ورحيل من تحبّ يُخلّف وجعًا في القلوب ويورثُ ألمًا في النفوس:

وكلُّ مصيباتُ الزمانِ وجدتُها ❖❖❖ سوى فرقةِ الأحبابِ هيّنةَ الخَطْبِ

وتُظلّ سحائبُ الوحشة الأرضَ بذهاب المؤمنين، ويغطي القلوبَ شعورُ الوَحْدة بفقد الصالحين .

فيا وحشة الدنيا وكانت أنيسةً ❖❖❖ وَوَحْدَةَ من فيها لمصرعِ واحدِ

والفجيعة بفقد العلماء الصادقين عظيمة، والمُصاب بذاهبهم جلل؛ لأنهم نورٌ يستضيء به الناس في دياجير الظلمات، ولا عجب أن جاء عن بعض السلف أن الأرض والسماء تبكي المؤمن بعد موته.

غرَبَتْ في الشرقِ شمسٌ ❖❖❖ فلها العينانِ تدمعُ

ما رأينا قطُّ شمسًا ❖❖❖ غربتْ من حيثُ تطلعُ

ويُسرّي عن المرء، ويُسلّي الإنسان أنّ ذكرى الشيخ باقيةٌ بجميل صنعه، وأياديه شاهدةٌ على طيب أثره.

ما ماتَ قومٌ إذا أبقوا لنا أدبًا ❖❖❖ وعِلْمَ دينٍ ولا بانوا ولا ذهبوا

ويهوّن على المرء ما يرجوه للشيخ من حسن العاقبة في الآخرة؛ لصلاحه وحسنِ حاله في الدنيا نحسبه والله حسيبه ولا نزكي على الله أحدًا.

وما الموتُ إلا رحلةٌ غيرَ أنّها ❖❖❖ من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي

والمهمّ أن يكون حبل المودّة ممدودًا بعد الفراق، ببقاء الذكرى، والثناء الحسن، والدعاء الصادق.

إنّي على العهدِ لمْ أنقضْ مودَّتَهمْ ❖❖❖ يا ليتَ شعري لطولِ البَيْنِ ما فعلوا

ويعزّي المرء نفسه عندما تمر به ذكرى من يُحبهم، ويجول بفكره طيف من يأنس لهم، مصيبة فَقْدِ نبيّ الأمة ورحيله.

تذكرتُ لما فرّق الدهر بيننا ❖❖❖ فعزّيتُ نفسي بالنبي محمدِ

وقلتُ لها إنّ المنايا سبيلنا ❖❖❖ فمنْ لمْ يمتْ في يومِهِ ماتَ في غدِ

قال لي عند وداعه بعد أن ضغط على يدي: "أسأل الله أن يجمعنا في الجنة ونتذكر هذا اللقاء" كان هذا آخر ما سمعته منه يوم زرته في شهر صفر من سنة "١٤٤٣".

ومُدّتْ أكفٌّ للوداعِ تصافحتْ ❖❖❖ وكادتْ عيونٌ للفراقِ تسيلُ

ولم يكن توديعي باليد والبدن، ولكن بالقلب والعين.

هَمَمتُ بتوديعِ الصديقِ فلمْ أُطِقْ ❖❖❖ فودّعتهُ بالقلبِ والعينُ تدمعُ

وأُلقي في روُعي حينها أنّي لن أراه بعدها، وهو ما كان.

أقولُ له حينَ ودّعتهُ ❖❖❖ وكلٌّ بِعبْرتهِ مُبلسُ

لَئنْ رجعتْ عنكَ أجسامُنا ❖❖❖ لقدْ سافرتْ معكَ الأنفسُ

سمعت بنبأ وفاة سماحة الوالد الشيخ "صالح بن محمد اللحيدان" فجر الأربعاء الموافق: ١٤٤٣/٠٧/٠٢هـ فوجدتني مدفوعًا لأكتب الجزء اليسير وأدّون القدر الضئيل الذي عرفته عن سماحته، والحقُّ أن الكتابة عن سماحته يحمل عليه استحضار الجميل، وحفظ المعروف، ورعاية العهد.

لوْ كنتُ أعرفُ فوقَ الشكرِ منزلةً ❖❖❖ أعلى مِنْ الشكرِ عندَ اللهِ في الثمنِ

أخلصتها لكَ منْ قلبي مهذّبةً ❖❖❖ حذوًا على مِثْلِ ما أوْليتَ مِنْ حَسَنِ

وأخاطب سماحته بقول الحسن بن هانئ:

أنتَ أمْرؤٌ جلّلتني نِعَمًا ❖❖❖ أوْهَتْ قُوى شُكْري فقدْ ضَعُفا

ومثلي مع سماحته لا يملك إلا الشكر والثناء، والعرفان والدعاء:

شَكَرَ الإلهُ صنائعًا أوليتَها ❖❖❖ سُلِكَتْ مع الأرواحِ في الأجسادِ

بلغني خبر وفاة سماحته فهاجت الذكريات، ومرّ بي طيف صور ابتسامته ولطفه، ومواقف كرمه وفضله، ومقامات عبادته وصلاحه، ونُزُلُ جهوده وآثاره.

أبلغْ أخانا تولّى اللهُ صحبتَهُ ❖❖❖ أنّي وإنْ كنتُ لا ألقاهُ ألقاهُ

وأنّ طرفي موصولٌ برؤيتهِ ❖❖❖ وإنْ تباعدَ عنْ مثوايَ مثواهُ

اللهُ يعلمُ أنّي لستُ أذكرهُ ❖❖❖ وكيفَ أذكرهُ إذْ لستُ أنساهُ

ومضى الجلوس مع سماحته كطيفٍ جميل ورؤيا حسنةٍ لم يبْقَ إلا ذكراها.

ويفنى الجميعُ كحلْمٍ بديعٍ ❖❖❖ تألّقَ في مُهجةٍ واندثرْ

صالح اللحيدان من الرسم الأول، والطراز القديم، والرعيل الجميل، والسلف الذي لا يتكرر.

لله أزمنةٌ عهدتُ رجالَها ❖❖❖ في النائباتِ وإنّهم لكرامُ

الشيخ -رحمه الله -معروفٌ عند الخاص والعام والصغير والكبير ولكن بدأت علاقتي الشخصية بسماحته سنة "١٤٣٢" وشرفتُ بالجلوس معه مراتٍ، بعضها بصحبة صديقي الشيخ سعد بن صالح الصرامي، ومرارٌ كثيرةٍ أختلف إليه وأصلي معه في مسجده للسلام عليه والانصراف.

الجلوس مع الكبار والاختلاف إلى العظماء يزيد في الإدراك، وينمّي الحِجَى، ويربّي النفوس، ويوصل معاني عظيمةٍ حول الحياة والناس.

والحقّ أنّ سماحته جمع خلالًا، وحاز صفات، ورُزق مناقب، لا تجتمع إلا في نوادر الناس، وكلامي ليس ضربًا من المبالغة ولا نوعًا من التهويل، بل سيحدّث لساني عن مآثر، وسيكتب قلمي مواقف، وسيخط حبري فضائل.

أحسب الشيخ من أهل الصدق والإخلاص، ويظهر هذا في إخفاء حسناته وكتْمِ صالحاته، ويمر بي في هذا المقام أنه جاء ذكر كتابٍ في الرد على إحدى الفرق المنحرفة وأنا أعلم يقينًا بأنّ الشيخ هو من طَبَعَه إلا أنه تجاهل ذلك وكأنّ الأمر لا يعنيه.

ومرّ الحديث عن كتابٍ آخر في كشف خطورة هذه الفرقة، عرفتُ فيما بعدُ أنّ سماحته قام بطبعه.

ويتبدّى مقامٌ آخر يظهر فيه صدق الشيخ واخلاصه في كراهته للثناء بتمعر وجهه ومقاطعة المُثني وانتهاره .

ويشابه حال سماحته حال السلف في أنه لا يُظهر علمه وحفظه على سبيل العلو وإظهار التفرّد، فكثيرًا ما ترد في مجلسه مسألةٌ في الفقه أو التاريخ أو اللغة وهو خبيرٌ بذلك متضلعٌ فيه فلا يندفع لبسطها أو الكلام عليها.

وأشرتُ في حديثي معه مرةً إلى رئاسته لتحرير مجلة "راية الإسلام" فأعرض عنه ولم يُعلّق عليه.

بل اطلعتُ على أعمالٍ عظيمةٍ للشيخ في الأمر والنهي، والصدقة والإحسان، والنصيحة للعامة والخاصة طواها بالإخفاء والكتمان.

ولعمر الله إنّ هذا مقامٌ عظيمٌ لا يتبوؤه إلا الخُلّص من الناس والكُمّل من الخلق ممن تعلّقت قلوبهم بالله وصفت في قصدها وإرادتها، وهذا من علامات الإخلاص ودلائل الصدق الذي تكلم عليه أرباب السلوك والمقامات العبادية، وبه بزّ القوم وعلا شأوهم في مراقي العبودية.

وصِدْقُ المؤمن مع الله يولّد له المحبة والهيبة في قلوب الخلق، وهذا ما شاهدته في الشيخ -رحمه الله تعالى -، فمع لطفه إلا أنّ النفس تهابه وتوقّره، وتجلّه وتعظّمه.

ودعني أحدثك عن سلامة القلب ونقاء السريرة التي ظهرت لي في بعض مواقف مع سماحته، إذ أخبرته مرةً عن تحصيل أمرٍ يهمني فبدا السرور على وجهه -حرّمه الله على النار - ودعا بالخير والبركة، ويقول في مجلسه بين حينٍ وآخر: أسعدتني بهذا الخبر .

وأبلغته بتعييني في الجامعة فسرّ بذلك وأخذ يكرّر: مبروك مبروك.

إنّ للنصحِ وللغشِّ على العينِ علامه ❖❖❖ ليس يخفى الحبُ والبغضُ وإنْ رمتَ اكتتامه

والإحسان إلى الخلق بمحبة الخير لهم والفرح لفرحهم والحزن لحزنهم مقامٌ لا يناله كلّ أحد.

وأما عفّة اللسان والإعراض عن ذكر الناس بسوء فخذْ عجبًا حيث جالسته مرارًا، والناس عادة ينبسطون في مجالسهم الخاصة، إلا أني لم أسمع منه كلمةَ سوءٍ في أحد، حتى في شخصيات أساءت إلى سماحته إساءاتٍ بالغة!!

بل إنّ سماحته طلب من ولاة الأمر إيقاف كتابات صحفية سلبية ضد أحد الشخصيات التي سبق أن أساءت له مرارًا!!

فهلْ رأيتَ أيها القارئ نبلًا ورفعةً وخلقًا كهذا؟!

وأنقلك أيها القارئ إلى مقام الوفاء وحفظ الود، ويظهر هذا عند ذكر شيخه الشيخ "محمد بن إبراهيم" في الترّحم عليه والدعاء له ووصفه بالإمام.

وإذا مرّ ذكر ولاة الأمر ذكر مآثرهم ودعا لهم، وكثيرًا ما يدعو للملك فهد والأمير نايف رحمهما الله.

والشيخ صادق الودّ، مقيمٌ على الصحبة؛ فكان يسأل صاحبي عني -تكرمًا منه وتواضعًا- إذا مرّ للسلام عليه، ولم ينقطع في سؤاله مرّة.

ولا خيرَ في ودٍ إذا لمْ يكنْ له ❖❖❖ على طولِ مَرِّ الحادثاتِ بقاءُ

وهذا نُزُلٌ عظيمٌ لا ينزله إلا النوادر، ومقامٌ كريمٌ لا يتبوؤه إلا القلائل:

ألا ذهبَ التكرّمُ والوفاءُ ❖❖❖ وبادَ رجالهُ وبقيَ الغثاءُ

وللشيخ نصيبٌ كبيرٌ وحظٌ وافرٌ من التعبّد والتنسّك؛ ويظهر هذا في تعظيمه لصلاة الجماعة بحضوره وتبكيره إليها مع كبره ومرضه، ولا ترى سماحته إلا خلف الإمام، وكان يوقف مجلسنا معه قبل الأذان بنصف ساعة؛ ليستعد للصلاة.

وتعظيم الصلاة بالتبكير إليها والمبادرة إليها من سَنَن السلف وطريقة الأوائل وسبيل أهل الإيمان.

وكان للشيخ نصيبٌ من صيام النافلة بإدامة صيام الاثنين والخميس.

وسماحته من أهل القرآن فهو مكبٌ على قراءته في مسجده وبيته .

وأما كمال العقل وتمام الإدراك، فمن جالس الشيخ وتعامل معه رأى ذلك في طول صمته، وسداد رأيه، وثاقب نظره، وسعة أفقه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم، يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ومن كمال عقله استشرافه للمستقبل وتفرّسه في الأحوال؛ طلب مني مرةً قبل الحرب مع الحوثي الكتابة عن هذه الجماعة تنبيهًا على خطرها، وأعاد ووكّد علي ذلك في آخر المجلس.

وسماحته واسع الاطلاع على العلوم والمعارف والفنون، فأما علوم الشريعة فلا تحتاج إلى دليلٍ على تضلّع سماحته منها، وأما بقية العلوم فحظه منها وافرٌ وكبير.

تحدّث سماحته مرة عن تاريخ الدولة العباسية فكان له اطلاعٌ دقيق على أطوارها ومراحلها التي مرّت بها وطبيعة كلّ مرحلة مما لا يعرفه عادة إلا المبرّزون في التاريخ المتخصّصون فيه.

وكان لسماحته نصيبٌ كبيرٌ من الشعر القديم والحديث؛ ولمْ ألتق به يومًا ولو لقاءً عابرًا إلا استشهد به، وظهر لي أنّ سماحته يحفظ الكثير منه.

ورأيتُ تمكنه في "النحو" في تفضّله بمراجعة بعض كتبي بوقوفه على دقائق النحو ومشكلات الإعراب.

ويعظّم سماحته السنة النبوية ويستشهد بها كثيرًا، ويذكر روايات الحديث الواحد، جاءه شخص يسلّم عليه في المسجد بعد وعكةٍ ألّمت به، فذكر سماحته حديث: "من دعا لأخيه في ظهر الغيب..". وألفاظه الواردة في الروايات الأخرى.

وأهداني سماحته مرةً كتابًا في السنة النبوية وأوصاني بتعلّمها وتعليمها .

وسماحته مطلعٌ على كتابات المعاصرين من مختلف المشارب والاتجاهات الفكرية والعقدية، فذكر مرةً الدكتور "زكي مبارك" وأطلق عليه الدكاترة، وتكلم عن كتابه: "التصوّف".

وكان الحديث جاريًا عن إحدى الفرق ونشاطها؛ فأبدى اطلاعه على كتاب: "الانقلاب" لعادل لبّاد، وهو كتابٌ لا يطلع عليه إلا من له متابعةٌ واهتمامٌ في هذا المسار.

ومرّة ذكر الحزب الشيوعي بعد قيام الثورة "البلشفية" في "روسيا" وطريقة حكمه للبلاد.

وتحدّث سماحته مرة عن أهمية القضاء وأثره في استقرار الدول؛ واستشهد ضمن حديثه بأن أوّل سؤال وجهه رئيس الوزراء البريطاني "ونستون تشرشل" بعد دمار المدن البريطانية بسبب القنابل الألمانية كان إلى وزير العدل: "هل القضاء بخير؟ قال: نعم؛ فقال: لا تقلقوا، فإن بريطانيا بخير".

ومن جالس سماحته رأى فيه طمأنينةً في النظر إلى الأحداث والوقائع والأحوال؛ فلا يعتريه خوفٌ ولا قلقٌ، ولا تلمس منه يأسًا ولا تشاؤمًا، ولعل السبب في ذلك مقام اليقين بوعد الله تعالى، ويمتدّ أثر ذلك إلى من يجالسه ويسمع كلامه فيخرج من عنده مطمئن النفس مرتاح البال.

ويتسم سماحته بأدبٍ رفيعٍ وذوقٍ عالٍ؛ فهو لا يَجْرَح ولا يُؤذي، ولا يَشُقّ ولا يُعاتب، مُجالسته لا تُمل وحديثه لا يُسأم.

لا يُسعدُ الناسَ في قولٍ وفي عملٍ   ❖❖❖   إلا امرؤٌ طيّبُ الأخلاق والشّيمِ

ومن خالط سماحته رأى فيه التواضع والتطامن؛ والتواضع ليس بمعناه الظاهر فحسب بل في معانٍ عظيمةٍ أخرى؛ فهو لا يتكلّف في كلامه ومنطقه، ولا يتشدق في حديثه ولسانه، ولا يُظهر نفسه في دور المُتطهّر والمُطهِّر والمُخْلِص والمُخَلِّص مما يَظْهر به كثيرٌ من الناس.

وتفيدُ من سماحته الواقعية في التعامل مع الناس بالتماس الأعذار لهم وحملهم على أجمل المحامل، واستشهد لي غير مرّة بالبيت العربي:

تأنَّ ولا تعجلْ بلومكَ صاحبًا   ❖❖❖   لعلّ له عذرًا وأنتَ تلومُ

وسماحته سخيُ النفس، يجود بماله، ويبذل جاهه، فما ردّني يومًا ولا ضنّ عليّ بشيء، ينتصب للشفاعة الحسنة، ويبادر إلى اصطناع المعروف.

حرٌّ إذا جئته يومًا لتسأله   ❖❖❖   أعطاكَ ما ملكتْ كفّاه واعتذرا

يُخفي صنائعه والله يُظهرها   ❖❖❖   إنّ الجميلَ إذا أخفيته ظهرا

هذه لمحاتٌ يسيرةٌ رأيتها في حياة هذا الإمام وسيرته، فرحمك الله يا شيخ صالح وتقبّلك في الصالحين، ورفع درجتك في عليين، وجمعنا بك في جنّات النعيم،،، آمين آمين.